قراءة في إسهامات النخب المحافظة السُوفية في كتابة التاريخ المحلي من خلال مخطوط الصُروف لإبراهيم بن عامر (ت 1932م).

الباحث: صادق بوطارفة

جامعة بسكرة، الجزائر

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على إسهامات النخب في الحياة الثقافية خلال العهد الاستعماري من خلال مخطوط الصروف في تاريخ الصحراء وسُوف لمؤلفه إبراهيم بن محمد الساسى بن عامر الملقب بالعوامر (ت 1932م)، وذلك من خلال الإجابة على جملة من التساؤلات، والتي نجملها في الآتي:

ما هو سبب تأليف هذا الكتاب؟ وما هو المنهج والأسلوب الذي سلكه المؤلف في تأليفه هذا؟ وما هي أهم المصادر التي اعتمد عليها المؤلف في إنجاز كتابه؟ .

Résumé :

Cette étude vise à mettre en évidence les contributions des élites dans la vie culturelle de l'époque coloniale à travers le manuscrit "Alsorouf fi tarikh sahara wa souf " qui écrit par Ibrahim ben Muhammad al-Sasi al-'Awamir (m. 1932) et qui en répondant à un certain nombre de questions, qui sont résumées dans ce qui suit:

Quelle est la raison d'écrire ce livre? Quelle est l'approche adoptée par la manière dont l'auteur a écrit cela? Quelles sont les sources les plus importantes invoqués par l'auteur dans la réalisation de son livre?

مقدّمة:

يندرج هذا الموضوع ضمن مجال التاريخ المحلي، الذي يعد أحد روافد التاريخ الوطني، وقد أكدت العديد من الدراسات[1]. على الأهمية القصوى التي يكتسيها في إعادة صياغة التّاريخ الوطني وكتابته، وبالنظر إلى الدراسات المونوغرافية المحدّدة زمانًا ومكانًا حول مختلف الأحداث والوقائع التي شهدتها الكثير من المناطق المختلفة من البلاد، فضلاً عن الكشف عن مجرياتها وتفاعلاتها والتعمق بالدراسة والتحليل لمختلف التطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي مرت بها تلك المناطق، وذلك بالاستخدام الأمثل للإمكانات المتاحة التي تمدنا بها الوثائق المحلية، الشيء الذي سيتيح للباحثين اكتشاف الكثير من الحقائق وتجاوز الأحكام والتصوُّرات الجاهزة، والتعميمات المفرطة التي كثيراً ما تقع فيها مختلف الدراسات التاريخية التي تتناول التّاريخ العام للجزائر.

إبراهيم بن عامر: الشخصية والمسار

وُلِد الشَّيخ إبراهيم العوامر بوادي سُوف سنة: 1298هـ/ 1881م [2] وتنتسب عائلته إلى قبيلة الشبابطة، من عرش المصاعبة [3] وقد نشأ في عهد الحاكم العام لويس تيرمان (1881 - 1891م) Louis Termain ، ثم في عهد جول كامبون (1891 – 1897م) Jules Martin Cambon، وكان الضابط كوفييه Cauvet هو رئيس المكتب العربي لمدينة الوادي (1900- 1902) [4].

أظهر ميلاً إلى العلم في وقت مبكر، فحفظ جزءا من القرآن الكريم بمدينة قُمار، حيث درس الأجرومية في قواعد النحو، والمرشد المعين على الضروري من علوم الدين لعبد الواحد بن عاشر في الفقه المالكي [5]. لم يقتنع العوامر بثقافة بلدته، فرحل إلى بلاد الجريد التونسي الذي كان يُعد مركزاً علميا هاماً، وخاصة توزر، التي تتواجد بها زاوية سيدي المُولدِي [6] وعند رجوعه إلى الوادي أقام صلات وعلاقات ببعض شيوخها، وخاصة عبد الرحمن العمودي، و الشَّيخ محمد

العربي بن موسى (موساوي)، حيث تتلمذ عنهما لفترة من الزمن. ثم شدّ الرحال نحو جامع الزيتونة، وكان من أساتذته: محمّد النّخلي، والشَّيخ محمّد الخضر، ومحمّد الطاهر بن عاشور، والشّيخ حسن بن يوسف. ويُجهل تاريخ إقامته في تونس، إلاّ أنه من المؤكد أنّ تونس كانت أيام رحلته الدراسية تلك، تشهد نشاطًا ثقافيًا وسياسيًا كبيرين. ولا شك أنه ظل على صلة بها حتّى بعد رجوعه إلى وادي سُوف [7].

اشتغل العوامر بالقضاء، حيث تقلد منصب وظيفة عدل بمحكمة كوينين [8] بموجب قرار حكومي صدر بتاريخ 14 نوفمبر 1910م [9] ثم رقي إلى رتبة باش عدل بنفس المحكمة، بمقتضى قرار مؤرخ في 11 جانفي 1913م [10]. وبعد ثلاث سنوات، انتقل الشَّيخُ إبراهيم للعمل في المحكمة الشرعية رفقة القاضي إبراهيم بن العربي عيساوي التاغزوتي [11].

وكشف عن كفاءة مهنية متميزة، ومقدرة فقهية عالية لأنه قام بعمل هام، تمثل في تنظيم الأحكام وتطبيقها وفق الفقه الإسلامي، واعتمد في ذلك على مذهب الإمام مالك. وكان المرجع والمفتي في جل القضايا التي كانت تطرح على المحكمة [12].

وتولى الفتوى بشكل غير رسمي خاصة في القضايا التي كانت تعرض عليه خارج عمله في المحكمة. كان مُتسامحًا في آرائه ولا يلتزم بالمذاهب الأربعة، لذلك نجده، في كثير من الأحيان يخرج عن المذهب المالكي إلى غيره من المذاهب الأخرى تماشيًا مع قوله تعالى: (يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ) [13].

ويصف الشّيخ زُهير الزّاهري المواقف النزيهة للشَّيخُ إبراهيم العوامر من مختلف القضايا التي كانت تطرح عليه بالمحكمة فيقول:

وفِي دُنْيَا المَحَاكِم كُنْتَ حُراً فَمَا اسْتَهوَاكَ فِي حُكم رَغِيف
ويُبْكِيْكَ اليَتَامَى كُلَ صُبْحٍ وَتَشْكُرُكَ الآرِامل والضَعِيف
وكَانَ الحَقُ فِي يُمْنَاكَ سَيْفا مَضَاءَ لَيْسَ يَحْمِلُهُ الوَصِيف [14]

ارتبط العوام بالطرق الصوفية التي انتشرت بشكل كبير في المنطقة، وأشهرها ثلاث: القادرية، العزوزية، والتيجانية [15].

وانضم إليها جميعا رغم ما كانت عليه من تمايز واختلاف في الرؤى والمواقف السياسية، وقد ذكر ذلك زهير الزّاهري بقوله:

كانت فيك جامعة الزوايا إذ الإسلام ليس به صفوف

وليس بديننا حلقات رقص ولا طرق التخلف والدفوف [16]

والسؤال الجدير بالطرح هنا هو: ما هي أهم الأسباب التي دفعت بالشّيخ العوامر إلى الانخراط في صفوف الطرق الصوفية؟

يمكن حصر تلك الأسباب في النقاط التالية:

1 ـ أنها كانت رِباطًا للدين تجمع ثلة من الأتباع وطلاب العلم، وبالتالي انتماؤه إليها للعمل على جمع أولئك الطلاب وتلقينهم دروساً في مبادئ الإسلام.

2 ـ إنَّ عصره قلَّما تجد فيه عالماً حياديًا وغير منتسب. يقول حمزة بوكوشة: « هو كعلماء عصره قل أن تجد واحداً منهم لا ينتسب إلى طريقة من الطرق الصوفية يحتمي بها، وتحتمي به، وينتسب إليها وتنتسب إليه سواء أكان ذلك منه عن إيمان واعتقاد أو عن تقية ومجاراة للعوام الذين من أصول اعتقادهم أن من لا شيخ له فالشيطان شيخه » [17].

ويذكر سعد الله أسماء بعض الموظفين والمثقفين الذين انتسبوا إلى الطرق الصوفية مثل: الشّيخ شعيب بن عليّ قاضي تلمسان، والشّيخ عليّ بن عبد الرحمن مفتي وهران، وعليّ بن الحفاف مفتي العاصمة، وعبد الحليم بن سماية أحد علماء المدرسة الثعالبية، وغيرهم [18].

3 ـ لأنه أراد أن يحتمي بها لأنها كانت تتمتع بنفوذ واسع لدى السلطات الفرنسية.

4 ـ أنه أراد إرضاء جميع الطرق الصوفية وذلك بالانضمام إليها في نفس الوقت رغم أن التيجانية تمنع أتباعها من الانخراط في الطرق الأخرى، توفي العوامر مساء يوم الأربعاء20 جويلية 1932م [19].وورد خبر موته في مكاتبة وجهها عدل محكمة تقرت إلى الكومندان العسكري بناحية تقرت بتاريخ 05 نوفمبر 1932 [20].

ودُفن يوم الخميس15 ربيع الأول 1351هـ / 21 جويلية 1932م بمقبرة أولاد أحمد، ورثاه تلميذه حَمزَة بوكوشة بقصيدة عنوانها: « سَقَى الوَابِلُ الوَسمِي قَبرَ ابن عَامِر » والتي نشرت في جريدة النجاح، ومما جاء فيها:

قضى (شيخ سوف) نحبه حتف أنفه يعز اصطباري والمصاب جليل

وأظلم وادي الرِّمـــال من بعده وأعقبه بعـــد الظلام ذهـول

بكى بغروب الدمع لما رأى ضحى على بذرة شر الرمال تمضى

شهمه المغوار والعالـــم الذي إليه في حل المشكلات يؤول

لعمرك ما بالوادي بعد ابن عامر وما بقيت بالوادي إلا ذيـــول [21]

أهمية الصُروف:

يعد كِتاب الصُّروف الذي ألفه إبراهيم العوامر في الربع الأول من القرن العشرين، من أهم المصنفات في تاريخ سُوف ولا يضاهيه سوى كِتاب تاريخ العدواني إلا أنّه أكثر شمولاً وإحاطة منه.

ويستمد هذا الكِتاب أهميته من خلال تزامن تأليفه مع الفترة الاستعمارية، واعتماد مؤلفه على نُقول من مصادر مفقودة في تاريخ سُوف مثل مؤلفات الشّيخ العروسي المخدرة والكناش.

كما أشار إليه أبو القاسم سعد الله في كتابه تاريخ الجزائر الثقافي، وقد قام الشّيخ الطّاهر التليلي بتلخيصه وسمّاه « حديث المُسامر من صُّروف ابن أبي عامر ».

وأثناء اطّلاعي وتتبعي لحركة التأليف في التّاريخ المحلي (الخاص بمنطقة سُوف) تبيّن لي مدى أهمية هذا المصنف في رصد أهم التحولات التي مرت بها المنطقة.

و اعتمد عليه الكثير من كتب حول سُوف، كمحمّد الطّاهر المنصوري في « الدُّر المرصوف في تاريخ سُوف » [22].

و محمّد ناجح في « سُوف الواحات » (Le Souf des Oasis) [23]، ويوسف حليس في « الموسوعة النباتية لمنطقة سُوف » [24] ونجد في كتاب كوفييه [25] .

(cauvet) حول سُوف الكثير من المعلومات التي تضمنها كتاب الصُّروف، فليس من المستبعد أن يكون هذا الأخير قد أخذ منه الكثير، واعتمد عليه محمّد سعيد القشّاط في كتابه « صّحراء العرب الكبرى » [26].

ولم يستبعد الشّيخ التليلي أن يكون الشّيخ أبو الضياف التاغزوتي قد نقل فصلاً كاملاً من كتاب الصُّروف، والذي نقله هو بدوره من كراس ابنه الشّيخ أحمد بن أبي الضياف [27].

وردت في كتاب الصروف أسماء بعض المناطق بسُوف التي كانت تعد مراكز عمرانية قبل وبعد القرن 11هـ / 17م، والتي تقع مابين منطقة سُوف وبلاد الجريد، أو تلك التي تقع في المنطقة الشّمالية الشرقية مابين شط الغرسة في الشرق وشط ملغيغ في الغرب.

وهناك إشارات إلى الأجناس التي استوطنت سُوف منذ القِدم، كالعمالقة الذين سكنوا بوادي الجردانية مثلا. تحدث العوامر عن بعض الشخصيات التي ساهمت بشكل فعال في الحركات العلمية والثقافية كخليفة بن حسن القماري الذي استطاع بفضل علمه وذكائه أن ينال اعتراف عُلماء الخنقة [28].

في مسألة الأخذ بمبدأ الجرة في الأحكام الشرعية في قضية ابن الخليل [29]، من خلال رسالة الجواب التي بعثها الصانغي باسم علماء الخنقة والتي تضمنت القبول والتسليم بما ذهب إليه الشّيخ حسن في فتواه[30]، ومن أعلام منطقة الزِّيبان الشّيخ عبد الرحمن الأخضري البنطيوسي [31]، صاحب السلم المرونق وغيره من

المؤلفات الأخرى [32]، والذي كان من أبرز قادة حركة الفكر التجديدي في القرن العاشر الهجري.

وهناك إشارة إلى حركة أبو علي النفطي [33]، الذي يعرف بالسُّني ببلاد الجريد لكن دون ذكر أي تفاصيل حولها [34].تكلم أيضا عن شخصية خالد بن سنان العبسي الذي يعتقد أن قبره ببلدة سيدي خالد بالزّاب الغربي، و ألف كتابًا حوله وسماه: حدّ السنان في عنق المُنكِر لخالد بن سنان. وكان يقصد بكلمة المُنكر، كما يؤكد حمزة بوكوشة، الشّيخ الطيب العقبي الذي أنكر على النّاس إقامة الاحتفالات حول ضريح خالد بن سنان بعد عودته من الحج، ووصل السجال بين الشيخين العوامر والعقبي بخصوص هذه القضية إلى صفحات الجرائد [35].

لم يغفل المؤلف في كتابه الحديث عن المرأة من خلال مختلف الأدوار التي قامت بها داخل مجتمعها. ونلحظ أيضا أن الأولياء تمتعوا بمكانة هامة من قبل سكان المنطقة، ومن الأسماء التي ورد ذكرها مثلا: زينب بنت تندلة، وتك بنت سبت، سيدي عبد الله، سيدي مستور..... [36].

ساهم الأولياء والصالحين الذين قاموا بأدوار هامة في منطقة سُوف في المحافظة على نوع من التوازن والتحكيم والمصالحة بين مختلف القوى القبلية في ظلّ غياب سلطة مركزيّة، والدعوة إلى قيم التسامح والعفو كدعوة الولي سيدي عبد الله زناتة إلى عدم المكيدة لطرود.

ويفصح الكِتاب عن أسماء الكثير من المأكولات التي اشتهرت في منطقة سُوف كالكُسكس، الشَّحْمِيَة، الشَحْشُوخَة...هذا بالنسبة للعامة. أما الخاصّة فارتقوا إلى أنواع وأصناف أخرى من الأكل كالدَّوِيدَة، والكَعك، والمَحَمْصَة.

وسرد لنا العوامر مختلف أطوار النزاعات القبلية التي عاشتها منطقة سُوف، كالحروب التي دارت رحاها بين طرود و عدوان، ويبدو أنه نقل جُل تفاصيلها من كتاب تاريخ العدواني. وتنازع طرود وزناتة.

إن القراءة المتأنية لأحداث الصراع الطرودي الزناتي الذي خصص له مؤلف الكتاب فصلاً خاصًا، جعلني أدرك أنّ هذا الصراع ذاته هو السبب الحقيقي الذي أدى إلى انحسار الإباضية عن سُوف. وقد خَلُص فيه إلى أنّ سنة 818 هـ تمثل نهاية الوجود الإباضي في هذه البلاد وانحسارهم إلى جهات مختلفة أخرى كنفطة ووارجلان وأريغ [37].

قصة الصُروف:

كاد مخطوط الصُّروف أن يضيع لولا الجُهد الذي بذله الجيلاني العوامر ابن المؤلف في المحافظة عليه؛ إذ يذكر أنه عندما كان في بلدة حَجُوط بالجزائر العاصمة مُعلِما هناك، و حدث ذات يوم أن حاصرته قوة الاستعمار وضيَّقت عليه الخناق، فعزم على الفرار نحو تونس، فقام بتمزيق وحرق كل ما كان بمنزله إلا مخطوط « الصُّروف » الذي كان يرافقه حتَّى أثناء دراسته بجامع الزيتونة.

وخطرت للجيلاني فكرة وضع المخطوط في صندوق من خشب، وتسلل ليلاً إلى حديقة صغيرة متصلة بمنزله، وحفر له حفرة عميقة ودفنه فيها، وقال مخاطبا إياه مثلما يقرأ النَّاس على الميت بعد دفنه: « أيها الكتاب العزيز الله يعلم كم بذلت من جهد طيلة سنوات عديدة للمحافظة عليك، وكم حرصت على ألا تذهب سدى مجهودات والدي مؤلفك، وها أنا اليوم أدفنك كما يدفن الميت، إنَّ بعثك رهين ببعثِ الجزائر، فإذا تحررت بلادنا فسيكون بعثك وتحررك، وإن كانت الأخرى لا قدر الله فوداعا إلى الأبد... » [38].

وبعد أن نالت الجزائر حريتها، عاد الجيلاني إلى أرض الوطن، وانتقل مباشرة إلى بلدة حَجُوط فاستقبله أهلها، ورافقوه إلى منزله القديم، ودخلوا جميعا إلى الحديقة التي دُفِن بها المخطوط، فأعانوه على حفرِ المكان إلى أن أزاحوا ما على الكِتاب من تراب فوجده سالمًا مُعافى كما دفنه، وبعد ذلك قام بطباعته سنة 1977م [39].

تاريخ التأليف:

من خلال الإشارات الواردة في الكِتاب تبيَّن لي أنّ المؤلف قد أنهى تأليف كتابه سنة 1331هـ/ 1913م. وهو يتكلم عن تاريخ الخليقة يقول: « من يوم تحرّك آدم عليه السَّلام إلى عامنا هذا، وهو عام: 1331هـ الموافق لسنة: 1913م، 9419 سنة » [40]، فهذا دليل على أنّ تلك السنة هي تاريخ الانتهاء من تأليف الِكتاب.

لكن ابنه الجيلاني يقول أنه عثر في مكتبة والده على مخطوطين اثنين يتعلقان بتاريخ منطقة الصّحراء عامة وسوف خاصة. المخطوط الأول كان إبراهيم العوامر قد صممه كمسودة شرع في تحريرها عام 1331هـ / 1913م، وعنونها باسم : كتاب الصُّروف في تاريخ سُوف.

وأما الثاني فقد شرع فيه سنة 1334هـ / 1916م، فهو من حيث محتواه العام نسخة من الأول غير أنّ مؤلفه قد أدخل عليه بعض التعديلات وأطلق عليه اسم: (كتاب الصّروف في تاريخ الصّحراء وسوف). وهو

الذي ـ حسب كلام الجيلاني ـ قد حرص على الاحتفاظ به إلى أن أصبح الظرف مواتيا لنشره [41].

يفهم من كل هذا أنّ الجيلاني قد قام بطبع النسخة المعدلة من المخطوط، واستغنى عن النسخة الأولى، وأنّ سنة 1331هـ / 1913م هو بداية تأليف الكِتاب، وسنة 1334هـ / 1916م يمثل تاريخ الانتهاء من كتابته.

سبب التأليف:

ألف إبراهيم ابن عامر، كتاب الصُّروف، بطلب من رجال السلطة المحلية الفرنسية في ذلك الوقت، وقد ذكر ذلك بنفسه في مقدمة الكِتاب، حيث يقول: « فهذه نبذة لطيفة، ومسائل شريفة في بيان أحوال الصّحراء وسوف... سألنيها ولاة الأمور... » [42].

ولم يذكر اسم الشخص الذي طلب منه ذلك بشكل صريح، ولكنه عبر عنه بولاة الأمور، وهي إشارة ضمنية إلى قيادة المكتب العربي التي كان على رأسها أنذاك الضابط كوفييه (cauvet).

ويرجح أبو القاسم سعد الله أن يكون هذا الأخير هو من طلب منه الكتابة في الموضوع، وللتذكير فقد نشر كوفييه (Cauvet)، عقب نهاية مهمته كتابًا هاما حول تاريخ سُوف [42]، ضمنه الكثير من القضايا والمعلومات التي نجدها في كتاب العوامر [43]، وكانت سلطات الاحتلال، تهدف من وراء ذلك إلى الاستفادة، قدر الإمكان من المعلومات لتقوية السيطرة والنفوذ على الأهالي، باستخدام المعلومات العلمية والفكرية والثقافية، لذلك كانوا يشجعون كل من كان يملك القدرة على التأليف، ويتمتع بثقافة واسعة على الكتابة، وقد نجحوا في ذلك مع الكثير من العلماء والمثقفين من الجزائريين، مثل محمّد الصّالح العنتري صاحب كتاب " الفريدة المنسية "، الذي ألفه بناء على طلب من الحاكم العسكري في قَسَنْطَينَة [44]، وكتاب " تعريف الخلف برجال السلف" لأبي القاسم الحفناوي الذي طُبع في جزءان بالجزائر في حدود سنة 1906 – 1907م، وهو من وحي جونار الذي شجع صاحبه وسهل مهمته [45].

ولم يتمكن الفرنسيون من الإطلاع على كتاب الصُّروف والاستفادة منه بسبب إحجام الشّيخ عن تقديمه إليهم، بعد أن فرغ من تأليفه، إذ ساءت علاقته بالسلطة الحاكمة آنذاك، التي اتهمته بالثورة والتمرد عليها [46].

وقد تكون هناك أسباب أخرى ذاتية دفعت العوامر إلى تأليف كتابه؛ وهي الطموح الشخصي، و الرغبة في الحصول على وظيفة رسمية، وتفادي غضب السلطات الفرنسية. والأكيد أنّ العوامر قد ألف كتابه في زمن الحاكم الفرنسي ليتو وكان أنذاك في الثلاثينات من عمره [47].

منهج وأسلوب المؤلف:

أولا: المنهج:

وضع المؤلف في بداية كتابه مبحثا خاصا سمّاه (تنبيهات يحتاج إليها النَّاظِر في هذا الكِتاب)، بيَّن فيه الخُطَّة العامة التي اتبعها، وكشف فيها عن منهجه في تناول بعض النقاط. و يمكن تلخيص منهجه انطلاقا من هذا المبحث، وبالاعتماد على ما يُستخلص من دراسة الكِتاب.أقَرَّ المؤلِّف أنَّ البحث في مجال التّاريخ عمل صعب للغاية، بسبب عدم الإطلاع على ما في نفس الأمر والواقع، ولهذا يستوجب على الخائض فيه أن يبذل قُصارى جهده للوقوف عند منتهى الخبر لأن أخبار فن التّاريخ لا تخلو عادة من الزيادة والنقصان على مر العصور والأزمان.

وقد نبه إلى ذلك ابن خلدون (ت 808 / 1406م) الذي استخدم النقد والمنطق في دراسة الأخبار والأساطير، فتبيَّن له زيف الكثير منها وعدم صدقها [48].وكان العوامر يحرص على نقل ما يجده من معلومات من المصادر أولاً، ثم يعقب على ذلك بما استقاه من الأوائل الثقات. وإن كان لديه ظن أو علم بالمسألة فإنه يفضل ذكره.

ومن ذلك مثلاً أنه ينقل عن العدواني الذي قال: أنه كانت بأرض سوف غدر النِّيل منذ القديم إلى زمن إتيان طرود إليها. ثم يستعرض رأي القدماء بأن كل قبيلة نزلت حول غدير، ثم تكاثرت الرِّمال فيبست الغُدران وانقطع جريان النِّيل. وحسب ظنه: إن هذا الكلام بعيد من ناحية النقل.

واتبع طريقة خاصة به في توثيق معلوماته في المتن بأن أشار إلى كل مصدر بحرف معين خاص به، والهدف من ذلك هو للتسهيل على القارئ للكِتاب من التعرف على مصدر المعلومات والتأكد منها بالرجوع إلى مصادرها الأصلية. إذ يقول في ذلك: « أشير بما صوّرته (بخ) إلى ابن خلدون في تاريخه، وبما هو (مق

) إلى المقريزي في تاريخ الخطط... فإن أشكلت عليك نسبة كلام فارجع إلى هذا التنبيه، وما نقلته من غير هذه الكتب فأذكره بعينه » [(49)].

اتّصف المؤلف بالأمانة، إذ نلحظ أنه يحيل أغلب منقولاته إلى مصادرها، وهو ما يشهد له بالأمانة العلمية وإن كنت في بعض الأحيان أجد اختلافًا يسيرًا أعزوه ربما إلى اختلاف الروايات والنُسخ وهو ما يفهم عند الإشارة إليه في الهوامش.

اعتمد المؤلّف النقد والتحليل، إذ كان يبرهن على ما ذهب إليه ويؤيده بالنُّصوص، لكن العوامر قد رمى العدواني بالجهل، رغم أنه قد أخذ منه الشيء الكثير، ونقل عنه في كتابه صفحات كاملة.

فقد رفض العوامر رواية العدواني عن الجازية وكونها تعلقت بالزناتي خليفة، وفي رأيه أنها تعلقت بذياب الهلالي، وقال عنه أنه جاء بخرافة مقتل الإمام علي والخليفة معاوية في الجردانية. وأنه من العامة، وأتهمه بالكذب والاختلاق.إذ يقول : « والعدواني مثلهم في ذلك، ولكنه حيث كان من العامّة الجهلاء المشتقة من العماء فلا يلام في ذلك »، ومن الخرافات التي جاء بها العدواني أيضا قوله: إنَّ طرود هم أولاد جبلة بن الأيهم.

والملحوظة أن العوامر نقل ما قاله ابن خلدون حول دور القبائل الهلالية العربية في إلحاق الضرر بالمغرب، ولم يقم بنقد هذا الرأي كما فعل مع العدواني، ويستعمل أحياناً التذنيب والتذييل لشرح فكرة أو للتعليق عليها.

وكثيرًا ما يستعمل الشولتين للشرح والتعريف مثلا: أصحاب الشورى (أصحاب الحكومة)، وكان أخبر أصحاب الشورى أصحاب القرية بأن لا تذهب قصعة لطرود حتَّى تمر عليهم لينظروا ما يستر (أي ليجعلوا فيها السّم).

أما بالنسبة للتعريف مثل قوله: والترشة (وهي حجارة رقيقة تكون عند الماء أو فوقه بقليل، وقد تنعقد فتتصلب). والاستسقاء (وهو انتفاخ البطن).ويظهر أن العوامر قد استعان بالخرائط الجغرافية في تحديد الأماكن بدقة، على الرغم أننا لم نعثر عليها في المخطوط، ولا شك أنها موجودة في النسخة الأصلية.

وكذلك علم الآثار عند حديثه عن وجود بعض الأدوات ومقارنتها بتلك التي وجدت بالجردانية لاثبات أنّ العمالقة قد سكنوا في تلك المنطقة، كما أنّه لم يقسِّم الكتِاب إلى مباحث أو فصول أو أبواب كما فعل ابن خلدون مثلاً، هذا ما جعل الأستاذ سعد الله يشبه نظام كِتاب الصُّروف بنظام الكنانيش والمذكرات لأنه عبارة عن عناوين مستقلة عن بعضها البعض فكلما انتهى من موضوع انتقل إلى آخر، فالكتاب عبارة عن (مَسَائِل) متفرقة وليس تاريخا مترابطًا [50].

ونتيجة لذلك جاءت معلومات الكِتاب معزولة عن بعضها البعض بل نجدها في كثير من الأحيان خارجة عن موضوع الكِتاب وغير موظفة في مكانها الحقيقي، لذلك ظهرت على شكل نشاز غريب داخل السياق العام للكتاب.

ثانيا: الأسلوب

ممّا يلاحظ أنَّ أسلوب العوامر بسيط في مجمله؛ إذ أنَّ القارئ قد لا يحتاج إلى استعمال قاموس لغويّ لمعرفة معنى ألفاظ الكِتاب، ويلاحظ إدراج الكلمات المحلية الخاصة بمنطقة المؤلف والتي لا يفهم معناها سوى من كان من أبناء تلك المنطقة. ولم يعتمد العوامر على الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة بشكل كبير على الرغم من تمتعه بثقافة فقهية ودينية واسعة، وربما عذره في ذلك أن الموضوع تاريخي في أغلبه، والملاحظ أنه عندنا تخريجنا لتلك الأحاديث وجدناها ضعيفة.

كما أننا نجد أنه في استشهاده بالأحاديث النبويَّة الشريفة لا يذكر السند مثل قوله: قال النبي صلى الله عليه وسلم: « تَعَلَّمُوا مِنْ النَّسَبِ مَا تَعْرِفُونَ بِهِ أُحَسَابَكُمْ وَتَصِلونَ بِهِ أَرْحَامَكُمْ ».

استخدم المؤلف أسلوب التشبيه، ومن ذلك قوله: « يخرجون من الأرض كالنمل حتّى يغطوا وجه البسيطة ». وقوله: « وفي حال مرورهم وجدوا أناسا بأرض الرّمل أشبه شيء بالأنعام السائمة فخاطبوهم فلم يفهموا فقتلوا منهم أناساً وفر الباقون وبقيت الأرض فقراء ».

كما أنَّ تضمينه للحِكَم والأمثال أيضًا من قبل إسداء النصح والتنبيه وأخذ العبرة، ومن أمثلة ما أورده من حِكم وأمثال كبير طرود: قوله: « من اقتدى بالغراب يسير به إلى الخراب ». وقال أيضا: « راحتكم في عطش أرضكم وبلاءكم في مائها ».

وغير ذلك من حِكم وأمثال أخرى مثل: « إِذَا وَالَى صَديقك مَنْ تُعَادِي، فَقَدْ عَادَاكَ وَأَنْفَصَلَ الكَلاَم » و« مكره أخاك لا بطل » و « عند الصباح يحمد القوم السرى ».

وكثيراً ما تستهويه مقدرته الفقهية فينساق معها ويكثر حينذاك من الاستطرادات ويسهب في تحليل تلك المسائل الفقهية. فمثلا وهو يتحدث عن بني عدوان وتنقلاتهم داخل المنطقة فيجره الكلام على ذي الأعواد، وكيف أنه أول من قضى في الخنثى المشكل ويفصل ذلك بالشرح. ويتحدث عن سيدنا يعقوب و يوسف ويستدل بالآيات (51).

وهو يتحدث عن وصايا سيدي مستور لطرود بعدم منع أي أجنبي إذا أتاهم والإقامة معهم وإكرامه وتزويجه حتَّى يتكاثروا وبالتالي يتفوقون عدديًا عن عدوهم، يستدرج القارئ بعد ذلك إلى الحديث عن ضرورة الابتعاد عن الزواج من الأقارب لما فيه الكثير من المساوئ. ودلل على ذلك بأبيات من الشعر العربي.

كما استشهد العوامر بالشعر في الكثير من المرات. وهذا ما يبين أنَّ لأسلوبه قيمة أدبيّة، وتمكنا من اللغة.

مصادره

أشار العوامر إلى مصادره التي اعتمد عليها في إخراج كتابه في التنبيه السادس. وقد فاقت العشرين، وهي كالتالي:

1 ـ تاريخ ابن خُلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر.

2 ـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخِطط المقريزية للمقريزي.

3 ـ تاريخ العرب لطلعت حرب.

4 ـ تاريخ الإسحاقي.

5 ـ رحلة بني هلال.

6 ـ تغريبة بني هلال.

7 ـ فتوح إفريقية.

8 ـ شرح مقامات الحريري للشريشي.

9 ـ وفيات الأعيان وأنباءُ أبناءِ الزَّمان لابن خلكان.

10 ـ عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات للقزويني.

11 ـ حياة الحيوان الكبرى للدميري.

12 ـ العِقْدُ الفَريد لابن عبد ربه الأندلسي.

13 ـ كتاب المؤنس في أخبار إفريقية وتونس.لابن أبي دينار.

14 ـ النخبة الأزهرية لإسماعيل علي.

15 ـ سرح العيون لابن نباتة.

16 ـ رقم الحلل في نظم لابن الخطيب.

17 ـ تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية للزركشي.

18 ـ إتحاف أهل الزَّمان بأخبار مُلوك تُونس وعهْد الأمَان لابن أَبي الضيِّاف.

19 ـ تحفة الأنجاد لابن الخوجة.

20 ـ نحلة اللبيب لابن عمار.

21 ـ نور الأبصار في مناقب آل بيت النّبي المختار صلى الله عليه وسلم للشبلنجي.

22 ـ مخدرة الشيخ العروسي.

23 ـ كناش الشيخ العروسي.

24 ـ ، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب لأحمد بك النائب الأنصاري.

25 ـ رحلة العياشي.

26 ـ كفاية الطالب.

27 ـ الخلاصة النقية في أمراء إفريقية للباجي المسعودي.

28 ـ تَاريخُ العدَواني للعدواني.

29 ـ قول القدماء [52].

تنوعت مصادر العوامر كما يتضح من التنبيه السادس ، وهذه المصادر نفسها اعتمدناها في ضبط النَّص المحقق فضلا عن الاستعانة بمصادر أخرى.وقد اعتمد العوامر على مصادر عديدة هامة، بلغت حوالي الثلاثين، وهي لا تتحدث عن سُوف إلا بشكل عابر، أو لا تتحدث عنها إطلاقًا. والملاحظ أن العوامر لم يعتمد على المراجع الفرنسية المتعلقة بتاريخ المنطقة، وربما أنه كان لا يحسن اللغة الفرنسية بالشكل الذي يسمح له بالكتابة بها، والاعتماد على مراجعها ومؤلفاتها، أو أنه تفادها خشية سيطرتها وهيمنتها على اللغة العربية [53].

والمرجّح أنه كان لا يعرف فرنسية المراجع والكتب، ولعلّه قد تعلم بعض الكلمات التي يتعامل بها مع الفرنسيين، والتي تعلمها نتيجة معاملته واحتكاكه اليومي المباشر مع المعمرين، فمن المؤكد أنه لم يتعلم بالمدارس الفرنسية التي لم تظهر بالمنطقة آنذاك [54].

مؤلّفات الشّيخ العروسي:

وتتمثل في كناش الشّيخ العروسي، ومخدرة الشّيخ العروسي، « فالشّيخ العروسي (المقصود به مقدم الزاوية التيجانية بقمار آخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن) كان مُتعلما وسياسيا في وقت حساس، ولاشك أن له معلومات ومخطوطات ووثائق تمكنه من الكتابة عن أمور لا يعرفها كل المتعلمين عندئذ، كما كان على صِلة بالإدارة الفرنسية وقبائل التوارق وغيرهم » [55]، ويبدو أن المخدرة وكناش العروسي كانتا من المراجع الهامة، ولكننا لا نعرف اليوم ما فيهما من معلومات وأخبار حول منطقة سوف [56]، ويقول أحد الباحثين أنه من المحتمل أن تكون المخدرة اختصارا للكناش، حيث يقول: « للشيخ العروسي كناش ومخدرة تاريخية لعل الثانية اختصارا للأول [57].

2 ـ تاريخ العدواني:

اعتمد العوامر بشكل كبير عليه، ونقل عنه صفحات كاملة، دون أن يشير إلى النسخة التي كان ينقل عنها، وكتاب العدواني كان معروفاً للفرنسيين الذين ترجموه إلى اللغة الفرنسية سنة 1867م [58].

3 ـ الرواية الشفهية:

وتتمثل في الاعتماد على أقوال شيوخ المنطقة، وأشار إليهم بقوله: « قال القدماء »، ومن أشهر الشيوخ الذين اعتمد عليهم الشّيخ نصر بن فطحيزة القرفاني، والشيخ البهلي [59].

ويقول سعد الله: « وقد اعتمد العوامر على الرواية الشفوية وأقوال القدماء وهو مرجع ضروري عند انعدام الوثائق المكتوبة ولكنه مرجع قد يكون غير مأمون العاقبة، لأن الرواية تحتاج إلى شروط كثيرة لمعرفة صحة الخبر » [60].

و يظهر مما تقدم أن بعض هذه المصادر قديمة مثل: تاريخ ابن خلدون مثلاً، وبعضها متوسط القدم مثل: المؤنس وتاريخ الدولتين، وبعضها ذو صلة وطيدة بتاريخ سُوف مثل: تاريخ العدواني، ومخدرة، وكناش الشّيخ العروسي.

ولكن هناك مصادر أخرى تبدو بعيدة عن الموضوع بل أثقلت الكتاب بمعلومات كانت في كثير من الأحيان خارجة عن صلب الموضوع مثل: عجائب المخلوقات للقزويني، والعقد الفريد، ولا ندري ما علاقة النخبة الأزهرية وتذكرة الأنطاكي بالموضوع [61].

الخلاصة:

نستنتج في الأخير أنّ إبراهيم العوامر قد احتل منزلة مرموقة بين معاصريه، لأنه ذو شخصية ثرية؛ فهو نسابة وفقيه و مؤرخ أديب وصحافي بما كان يكتبه من مقالات، وشاعر من خلال قصائده وخاصة ديوانه الصوفي [62].

كما أنه ترك العديد من المؤلفات ذات قيمة علمية بالغة بالنظر إلى العصر الذي عاش فيه، ولعل أهمها كتاب الصُّروف الذي يعد أهم مصدر للتاريخ المحلي لمنطقة سُوف بشكل خاص بعد تاريخ العدواني.

والملاحظ أنه إذا كان العدواني اعتمد في تدوين كتابه على مخزون ذاكرته، وكتب بلغة تميل إلى العامية أكثر من الفُصحى، فإن العوامر قد اعتمد على مصادر ذكرها بنفسه في كتابه هذا، كما أنه كتب بأسلوب مباشر وبسيط وبلغة واضحة وسليمة.

ويبدو أنّ العوامر لم يبدأ حياته إصلاحيًا كما يعتقد الكثير، بل كان شديد الميل إلى الفكر الصوفي المحافظ؛ ونلمس ذلك من خلال مؤلَّفه البحر الطافح، الذي ظهر فيه صُوفيًا إلى أبعد الحدود، مؤمنًا بكرامات شيخه إيماناً عميقاً يدعو أحياناً إلى الاستغراب؛ وربما يفسر لنا ذلك عدم حضوره المؤتمر التأسيسي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين في 05 ماي 1931م. ثم تطوَّر إلى مساندته للأفكار الإصلاحية وإيمانه بها كما جاء في قصيدة تلميذه الشّيخ حمزة بوكوشة. ولعل هذا ما دفع ببعض الباحثين إلى تصنيفه ضمن كتلة عُلماء سُوف المحافظين.

يتيح مخطوط الصُّروف مَجالاً واسعًا أمام الباحثين لدراسة بعض القضايا من خلال هذا النّوع من المصادر؛ كدراسة تشكيل بنية المجتمع الإثنية

والطبقية، وتسليط الضوء على تتبع تاريخ قبيلتي عدوان وطرود، وجغرافية سُوف وحركة التعمير والاستقرار، ودراسة عادات وتقاليد المجتمع مثل: دور المرأة وحضور الولي وشيخ القبيلة في المجتمع ودورهم فيه، والصراعات القبلية فِي مُجتمع وادي سُوف وغيرها، من المواضيع الجديرة بالمعالجة والطرح.

❖ هوامش البحث

(1) انظر: قشي فاطمة الزهراء، **قسنطينة في عهد صالح باي البايات**، منشورات ميديا بلوس، قسنطينة، 2005م. نور الدين صادق، **صعوبات التأريخ المحلي بالمغرب: تاريخ تارودانت نموذجاً**، مجلة أمل، عدد مزدوج: 22 – 23، السنة 2001. فارس كعوان، **إسهامات النُّخَب التقليدية القسنطينية في كتابة التاريخ المحلي: قراءة في أعمال البابوري وبن جلول**، مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية، العدد 15 جويلية 2012، ص 74 وما يليها.

(2) يرى البعض أنّ تاريخ الميلاد الحقيقي للشّيخ إبراهيم هو عام 1875م، وذلك حسب وثيقة تحمل رقم 453، مسجلة بالمحكمة الشرعية بالوادي، وهي موجودة كذلك في أرشيف إيكس أون بروفانس مؤرخة يوم 24 / 09 / 1910م، تحت رقم A.O.M.17H31. انظر: عاشوري قمعون، **الشيخان الشيخ إبراهيم بن عامر (1292 – 1351هـ / 1875– 1932م) الشّيخ الهاشمي الحسني (1320 – 1410هـ / 1902 – 1989م)**، ط:1، مطبعة مزوار، الوادي، 2010، ص21 (هامش01).

(3) العوامر إبراهيم، **الصُّروف في تاريخ الصحراء وسُوف**، تعليق الجيلاني العوامر، الدار التونسية للنشر، تونس، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1977، ص287.

(4) سعد الله أبو القاسم، **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج: 4، ط: 7، دار الغرب الإسلامي، بيروت ـ لبنان، 1998، ص504.

(5) العوامر الجيلاني، **أعمال العلامة إبراهيم بن محمد الساسي العوامر**، الندوة الفكرية الرابعة محمد الأمين العمودي، دار الثقافة، الوادي، أيام 30 أفريل ـ 01 ـ 02 ـ 03 ماي 1991، ص36.